The Geographical Space of Muqatta'at Poets in the Umayyad Era

Dr. Bouthina Zhira*

(Received 28 / 11 / 2024. Accepted 19 / 3 / 2025)

□ ABSTRACT □

This research seeks to identify the specificity of the geographical space among the Muqata'at poets in the Umayyad era. The relationship of these poets with the geographical space was different from the usual and familiar ones that are commonly found in poetry in general, due to the specificity of the lives of the Muqata'at poets in general, who lived a life of endorsement and rebellion, and they suffered the consequences of fleeing from authority and separation from society, so the geographical space represented a haven in which they discharged their energies and broadcast their feelings and sensations in it. This signalled the establishment of new relationships with the elements of nature in its various manifestations, especially the geographical space; a relationship that foreshadows the extent of the alienation that these poets suffered in their native society, so that the geographical space becomes a substitute for society, and opens up to the elements of familiarity, warmth and security that they were deprived of in their social environment.

Keywords: Geographic, space**,** Muqata'at, Umayya.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **researcher, Faculty of Arts and Humanities, Lattakia University, syria.**

الفضاء الجغرافيّ لدى شعراء المقطّعات في العصر الأمويّ

د. بثينة زهيره*

(تاريخ الإيداع ٢٨ / ١١ / ٢٠٢٤. قبل للنشر في ١٩ / ٣ / ٢٠٢٥)

ملخّص

يقف البحث على خصوصية الفضاء الجغرافي لدى شعراء المقطّعات في العصر الأموي، فقد كانت علاقة هؤلاء الشعراء بالفضاء الجغرافي علاقة تندُّ عن السائد والمألوف مما يطالعنا به الشعر عموماً، وذلك يعود في طبيعة الحال إلى خصوصية حيوات شعراء المقطّعات بصورة عامة، فقد عاشوا حياة التأبّد والتمرد، وعانوا عواقب الفرار من السلطة، والفصل عن المجتمع، فامتثل الفضاء الجغرافي ملاذاً يفرّغون فيه طاقاتهم، ويبثّون فيه مشاعرهم وأحاسيسهم. الأمر الذي آذنَ بإقامة علاقاتٍ جديدةٍ مع عناصر الطبيعة بتجلّياتها المختلفة؛ ولاسيما الفضاء الجغرافي؛ علاقةٍ تنبئ بمدى الاغتراب الذي عاناه أولئك الشعراء في مجتمعهم الأمّ، ليمسي الفضاء الجغرافي بديلاً من المجتمع الأم، ويفتح على عناصر الألفة والدفء والأمان التي حُرموها في بيئتهم الاجتماعية.

وعلى الرغم من توافر شعر المقطعات في كثير من المصادر الأدبية المتصلة بالعصر الأموي، لم يتم الوقوف على دراسة فيها تُعنى بأهمية الفضاء الجغرافي في تلك المقطعات عناية خاصة، ليحاول هذا البحث أن يرصد حضور ذلك المكون المهم في أشعار أصحاب المقطعات مستعيناً بالمنهج الوصفي في الدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: الفضاء، الجغرافي، المقطّعات، الأموي.

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **باحثة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة اللاذقية، سورية.**

مقدمة:

يسهم الوقوف على تشكّلات الفضاء الجغرافي لدى مقطّعات شعراء العصر الأموي في القبض على الرؤى الدلالية التي تتمخّض عن المستويات الفكرية والتحليلية لنصوصهم الإبداعية؛ الأمر الذي يقود الدارس إلى تتبع جملة القيم الحادثة التي أفرزتها هذه الرؤى لمعايرتها بنظائرها من تجارب الشعراء الآخرين.

فالفضاء الجغرافي نواة القصيدة التي تدور حولها محاور النص المختلفة، لذلك بات من الضرورة بمكان الاهتمام بذلك المكون الرئيس سبيلاً للكشف عن خبايا النص ومكنوناته، علماً أن تحديد صورة الفضاء الجغرافي في النص الأدبي أمر مرتهن لرؤية الشاعر الفنية؛ وهذه الرؤية ما تنفك تتشارك فيها عوامل عدة سواء أكانت مرتبطة بظروف اجتماعية أو ثقافية أو نفسية.

ومقطّعات الشعر في العصر الأموي ما تنفك تدلّل على ارتباط أصحابها بمجتمعهم الأمّ بفضل ما يعكسه حضور الفضاء الجغرافي في أشعارهم، إذ يأخذ هذا الحضور أبعاداً جديدةً، ليستحيل في كثير من الأحيان البديل الآمن من المجتمع وثقافته السائدة.

أهمية البحث وأهدافه:

تتأتى أهمية البحث من كونه يتتبّع ملامح حضور الفضاء الجغرافي في مقطعات شعراء العصر الأموي، وما يمكن أن ينمّ عليه هذا الحضور اللافت في أشعارهم، علماً أنه يرد بصورةٍ مغايرةٍ للمألوف، مما سمح لنا بالكشف عن دلالات جديدةٍ تخصّ شعراء المقطعات دون غيرهم.

وانطلاقاً مما سبق، يهدف البحث إلى العمل على إجلاء صور كلية لمشاهد المقطعات بدءاً من حضور الفضاء الجغرافي فيها، فالفضاء الجغرافي في شعر المقطعات يعمل على تكثيف الحالة النفسية للشاعر، ويمنح الشعر طاقة مضافة بفعل قدرته على الإسهام في إنتاج دلالة النص، والكشف عن ماهيته وأبعاده.

الدراسات السابقة:

يعترف البحث بفضل الدراسات السابقة التي خاضت في مجال الحديث عن الفضاء الجغرافي (المكان) في العمل الأدبي، وسلطت الضوء على أهميته، نذكر من هذه الدراسات: مشكلة المكان الفني لـ (يوري لوتمان) ترجمة سيزا قاسم، وجماليات المكان لـ (غاستون باشلار) ترجمة غالب هلسا، وجماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا لـ (أسماء شاهين)، يُضاف إليها عدد من الدراسات التي ستُثبت في قائمة المصادر والمراجع.

وإذا كان (المكان) النواةَ التي دارت حولها جميع الدراسات السابقة وغيرها، فإن البحث سيفيد من كثير من محاورها في معاينة حضور الفضاء الجغرافي في مقطعات شعراء العصر الأموي،ليعيد إنتاج دلالة ذلك الفضاء بما يتوافق مع معطيات العصر الأموي ومعطيات شعرائه.

مسوّغات البحث:

على الرغم من أهمية الفضاء الجغرافي في العمل الفني، ومن تأكيد النقاد ضرورة الوقوف على حضوره في النص الأدبي بوصفه مكوناً رئيساً من مكوناته، يتعذر العثور على دراسة خاصة بذلك المكون لدى شعراء المقطعات في

العصر الأموي، من هنا جاء البحث ليقف على حضور الفضاء الجغرافي في بعض مقطعات أشعارهم لعله يعين في الكشف عن مخبوءات النص الداخلية، ويسهم مع البنيات التكوينية الأخرى للمقطعات في إجلاء الصورة الكلية لها.

منهجية البحث:

يستعين البحث في دراسته بالمنهج الوصفي الذي يعتمد على التحليل والاستنتاج والاستنباط بغية الوصول إلى أحكام ونتائج يؤمل أن تشكل قراءة موضوعية لحضور الفضاء الجغرافي في مقطعات شعراء العصر الأموي.

مفهوم المقطّعات:

لغةً: "القِطْعُ سهم قصير النصل عريض، والجمع قِطاع"[١]، و" المقطعات: الثياب القصار، في الحديث أنّ رجلاً أتاه وعليه مقطّعات له، وكذلك مقطّعات أبيات الشعر"[٢]، وقد ورد في اللسان: " مقطعات الثياب والشعر قِصارها، وكلّ قصير مقطّع ومتقطّع... وسمّيت الأراجيز مقطّعات لقصرها"[٣]

وقد ذُكر الفرق بين المقطعة والقصيدة، فجاء في لسان العرب: " والذي في العادة أن يسمّى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة، أو خمسة عشر قطعة، فأما ما زاد على ذلك فإنما تسمية العرب قصيدة"[٤].

إذاً ، يحدّد اللغويون المقطّعة على أساس كمّي، فهي رسمٌ شعريّ استوى مقابلاً للقصيدة الفنية القديمة.

اصطلاحاً: يذهبُ نفرٌ من النقاد إلى أن المقطعة هي البداية الأولى لظهور الشعر، إذ "لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة"[٥]، وقد جاء لابن رشيق القيرواني قوله: "فالشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً"[٦].

وقد اختلف النقاد في تحديد عدد أبيات المقطّعة، ف" العرب تسمي البيت الواحد يتيماً، وكذلك يقال الدرة اليتيمة لانفرادها، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نتفة، وإلى العشرة وتسمّى قطعة، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيداً"[٧].

وذهب بعضهم إلى أنّ " القطعة من الشعر ما كان سبعه أبيات فما دون وقيل عشرة"[٨]

إذاً، ليس هناك ضبطٌ دقيق لعدد أبيات المقطّعة، غير أنّ البحث سينظر إلى المقطّعة بوصفها مشهداً فنيّاً مكتملاً يعالج فيه الشاعر موضوعاً واحداً محدّداً لا يتخطّاه إلى غيره من التكوينات الأخرى.

والمقطعات في البحث هي مجموعة من المشاهد الفنية، التي نظمها الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، وهم من قامت حياتهم على التشرد والمطاردة، فلم يتسنّ لهم الخوض في المطولات، ولا المراجعة الدقيقة لشعرهم وتنقيحه، فطبيعة حياتهم الخاصة دفعتهم إلى الانشغال بأنفسهم وبتوفير بلغ العيش لما يسد رمقهم ويؤمن قوت يومهم.

ونظراً لغزارة إنتاج هؤلاء الشعراء، فقد آثر البحث الوقوف على بعض الأصوات التي رأى أنها تفي بحدود المطلوب للكلام على الفضاء الجغرافي في هذه المندوحة الضيقة.

أما الفضاء الجغرافي فيتعيّن في النّص الأدبي عموماً بوصفه بنية تكوينية رئيسة لا تقلُّ أهمية عن بنيات القصيدة الأخرى، فهو معادلٌ للمكان، وركيزة رئيسة لا تنفك تسهم في سبر أغوار النّص الداخلية، واستكناه عوالمه، وبذا فهو

---

[١] **جمهرة اللغة، ابن دريد، دار صادر، طبعة الأوفست، ٣/١٠٥**

[٢] **معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٣٦٩م،٥/٢٠٢.**

[٣] **ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، مادة قطع.**

[٤] **ابن منظور، مادة قصدَ**

[٥] **الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٩٦م، ١/١٠٤.**

[٦] **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٩٣٤م،١/١٨٩**

[٧] **إعجاز القرآن، تحقيق: أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر، ١٩٩٤م، ص١٨٣.**

[٨] **محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧٤٥**

ينأى عن معناه المجرد ليمسي من صميم التجربة الشعرية، فالفضاء الجغرافي في النص الشعري ينتقل بالحيز الجغرافي إلى مستوى الوجود الفني نظراً لحيازته قيماً ثقافية وتجارب اجتماعية، من هنا يحتّم حضوره تكثيفاً لحالات نفسية وعواطف إنسانية يغدو عنصر المكان فيها أداة مهمة تُستخدم للكشف عن محمولات النص الدلالية العميقة، يقول د. عبد الصمد الزايد في الفضاء الجغرافي: ." فقد غلب على الناس فهمه على أنه قبل كل شيء ظرفاً، وعاء أو إطار، ولكنّ ذلك لا يمثل إلا معناه المباشر المألوف المحدّد الظاهر، وأمّا معناه العميق الواسع فيكمن في العناصر المركّبة لعمارته مهما كان نوعها، فهي الوسيط إليه، وهي محطّ ما نودعه فيه من الدلالات، ونحمّله من المعاني"[٩]

تؤكد الدراسات الأدبية الحديثة ضرورة إعطاء الفضاء الجغرافي دوراً رياديا في النص الشعري، وعدم النظر إليه بوصفه مكوّناً ثانوياً فيه، لذلك بات هذا المفهوم من النقاط المهمة التي لا بُدّ من الوقوف عليها لدى دراسة التشكيل الشعري للنص الأدبي، فهو جزء من العناصر الدرامية في القصيدة ، كالزمان والحوار والشخصيات والأبعاد الإيديولوجية.

وعلى الرغم من هذه الأهمية التي توليها الدراسات الأدبية والنقدية للفضاء الجغرافي، يصعب الركون إلى بناء نظري جامع وشامل له، وقد نبّه الناقد حسن بحراوي إلى عدم وجود نظرية متكاملة حول هذا المفهوم، لكننا نستطيع أن نتلمّس دراسة جدية لدى غاستون باشلار التي اعتمدت دراسة القيم الرمزية المتصلة بالمشاهد والمناظر.[١٠]

إذاَ، لم يعد الوقوف على الفضاء الجغرافي في النص الشعري أحد العناصر الشكلية بوصفه معادلاً للمكان، بل أمسى ضرورة تفرضها طبيعة ذلك النص من جهة، وعلاقة المبدع بذلك الفضاء سواء أكان مكاناً واقعياً أم من محض الخيال من جهة ثانية.

أهمية الفضاء الجغرافي

تتأتّى أهمية الفضاء الجغرافي (المكان) في العمل الإبداعي من كونه يشكّل " جزءاً أساسياً من هندسته ومعماريته، وليس مظهراً تزويقياً"[١١] والمكانية هي بعدٌ فيزيائي لا يمكن إغفال أهميتة في النص الفني عموماً، وقد عبّر كثير من النقاد عن أهمية الفضاء الجغرافي في الشعر انطلاقاً من أنّ الصور الشعرية تتمحور حول مراكز ثقل مكانيةّ[١٢]

وعليه؛ يغدو الفضاء الجغرافي مندوحةً يفردُ المبدع من خلالها هواجسه ورؤاه، فضلاً عن أنّ المكان هو الأداة المهمّة التي تساعد في تبلور شخصيّة المبدع، فالصور التي يقدمها هذا الأخير تنمُّ على وفق رؤيته التي لن تخرج، في الأغلب الأعم، عن تجربته الخاصة، بل لا بدَّ لها من أن تخضع لمعطيات تلك التجربة ومواصفاتها المختلفة؛ وبذا، فإنّ "الحديث عن تأثير المكان في الناحية النفسية للشخصيات يقودنا إلى معرفة أشمل لخبايا النفس الإنسانية، فتأثير المكان في نفسية الشخصيات غالباً ما يكون أعمق من التأثير في الجسد"[١٣]

من هنا بات جليّاً أن الفضاء الجغرافي له دورٌ مهم في إنتاج دلالات النّص الأدبي بما يمتاز به من الحيوية والفعالية، وهو قادرٌ على الكشف عن خبايا النّص الداخلية، وماهية بنيته العميقة.

---

[٩] المكان في الرواية العربية، والصورة والدلالة، كلية الآداب، دون طبعه، دوان تاريخ، ص١٥.

[١٠] يُنظر: بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٥.

[١١] جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، أسماء شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص١٧.

[١٢] يُنظر: جماليات المكان في شعر السيّاب، ياسين النصير، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٠.

[١٣] جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، أسماء شاهين، ص١٨.

***القتّال الكلابي (...-نحو ٧٠ه،...- نحو ٦٩٠م) عُبيد بن مُجيب المضرحي، من بني كلاب بن ربيعة، شاعر فتّاك، بدوي من الفرسان، يكنّى أبا المسيب، أدرك أواخر الجاهلية، وعاش في الإسلام إلى أيام عبد الملك بن مروان، وسُجن مرة في المدينة لقتله ابن عمّ له اسمه زياد، وفرّ من السجن وتبرّأت منه عشيرته.(معجم الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٧، ٢٠٠٧م، ٤/١٩٠).**

الفضاء الجغرافي لدى شعراء المقطعات في العصر الأموي:

إنّ دارس مقطعات شعراء العصر الأموي يلفي الخصوصية التي يبديها حضور الفضاء الجغرافي فيها، ومصدر هذه الخصوصية هو ذاك التفاعل الجديد بين هؤلاء الشعراء وجزئيات ذاك الفضاء، إذ يتضح أنه تفاعل قائم على تغيير في العلاقة التي تجمع الشاعر بالقفار والبيد بصورة عامة، فيظهر الفضاء الجغرافي حميماً، وعلى أنه مكان الانتماء لا المكان الموحش، وهو بذلك انفتح على دلالات جديدة لها ارتباط وثيق بتجربة ذاتية خاصة.

يقول القتال الكلابي*:[١٤]

سَأعتِبُ أهلَ الدّين مما يَريبهم ... وأَتْبَعُ عَقْلي ما هَدَى ليَ أَوَّلُ

أوَ ٱلْحَقُ بالعنقاءِ في أرض صاخةٍ ... أو الباسقاتِ بين غَوْلٍ وغُلغِل

وفي باحَةِ العنقاء أو في عَمَايَةٍ ... أو الأدَمى مِنْ رَهْبَةِ المَوْتِ مَوْئِلِ

ولي صاحَبٌ في الغارِ هَدّكَ صاحباً ... هو الجَوْنُ إلا أنَّه لا يُعَلَّلُ

إذا ما التقينا كان جُلَّ حديثنا ... صِماتٌ، وطرفٌ كالمعابلِ أطحل

تضمّنتِ الأروى لنا بطعامِنا ... كلانا له منها نصيبٌ ومأكلُ

وكانت لنا قَلْتٌ بأرضٍ مَضِلَّةٍ ... شريعَتنا لأيّنا جاءَ أوّلُ

كلانا عدوٌّ لو يَرى في عدوّه ... مَحَزّاً، وكُلٌّ في العداوةِ مُجْمِلُ.[١٥]

يتجلّى واضحاً في المقطّعة السابقة حضور الفضاء الجغرافي بصورة مغايرة لما عهدناه في الشعر بصورة عامة، إذ يتضح التحول في طبيعة تلك العلاقة التي تربط الإنسان بالمكان المقفر، فالأمكنة التي استقّر بها الشاعر هي: (العنقاء– صاخة– غول– غلغل– عمايه– الأدمى– الغار– قَلْت) وهي تحضر في المقطعة على أنها الملجأ الذي يفيء إليه الشاعر بعد هربه من السجن، لتبدأ مرحلة جديدة فيها من مراحل الألفة والائتمان، فضلاً عن تحوّل في طبيعة علاقة الشاعر بحيوانات تلك الأمكنة، لتغدو بمنزلة القريب من الشاعر.

إذاً، يمنح الشاعر الفضاء الجغرافي المتمثّل بالأوابد والقفار وجوداً موازياً لمكان انتمائه وبيئته، وهو بذلك يخرج عمّا تقرّه الصورة النمطيّة لعلاقة الشاعر بالمكان الوطن بصورة عامة، فالقتّال ينطلق في بناء علاقته بالفضاء الجغرافي من تجربة ذاتية تحدّدها طبيعة حياته التي اعتمدت الهروب والتخفي سبيلاً لها، لذلك كان حضور ذلك الفضاء في شعره وسيلة من وسائل إقرار قيم دلالية جديدة ترتبط به، "فجميع الأحاسيس والمشاعر لها امتدادات مكانية، ولا سيما ما له علاقة بالألفة والحماية والأمان، وما تنطوي، بالضرورة، عليه معاني غيابها والإحساس بفقدانها"[١٦]

---

[١٤] **ديوان القتّال الكلابي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م، ص٧٧-٧٨.**

-العنقاء: أكمة فوق جبل مشرف أوى إليه القتّال، غلغل: جبل بنواحي البحرين، غول: جبل، وقيل : وادٍ في جبل من منازل الضباب.

الباحة: الساحة، عماية: جبل في بلاد بني كعب، وهو هضبات مجتمعه متتابعة فيها الأوشال والأوى والنمر.

الأدمي: أرض ذات حجارة في بلاد قشير. موئل: منجى

هدّك: كفاك. الجون: قال في اللسان (جون): أبو الجون كنية النمر

صمات: سكوت. المعابل: جمع معبلة وهي النصل الطويل العريض. الأطحل: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل، وقيل أصل/ الأطحل أن يكون لونه كلون الطحال.

الأروى: أنثى الوعل. تضمّنت: تكلّفت

القَلْت: نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء. مضلّة: تضلّ السّالك فلا يهتدي إليها. الشريعة: المورد

مُجمل: مقتصد.

[١٦] **يُنظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص١٥٨.**

***عُبيد بن أيوب العنبريّ (...-...) من بني العنبر، يكنّى أبا المطراب وأبا المطراد، من شعراء العصر الأموي، كان لصّاً، وكان يزعم أنه يرافق الغول والسّعلاة ويبايت الأفاعي. (معجم الأعلام ، الزركلي، ٤/١٨٨).**

يقولُ عُبيد الله بن أيّوب العنبري* في إحدى مقطّعاته:[١٧]

علام تُرى ليلى تعذِّبُ بالمُنى أخا قَفرةٍ قد كادَ بالغُول يأْنَسُ
وأضحى صديقَ الذئبِ بعدَ عداوةٍ وبُغضٍ ورَبَّته القِفارُ الأمالِسُ
تَقَدّدَ عنه واستطار قميصُهُ وقد يَقْطَعُ الهِنديُّ، والجَفْنُ دارسُ
يَظَلُّ وما يبدو لشيءٍ نهارهُ ولكنّما يَنباعُ والليلُ دامِسُ
فليس بجنّيّ فيُعرَفُ شَكلُهُ ولا أَنَسيٌّ تحتويهِ المجالِسُ

يفتح الفضاء الجغرافي المتمثل بلفظتي (القفار) و(قفرة) والمسندتين في الوقت نفسه إلى لفظتي (أخا) و (ربّته) على معاني الانتماء والانتساب، فالقفر في اللغة هو: " الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ"[١٨]، غير أنّ القفر يتجلى في المقطعة السابقة على نحو مغاير لمعناه اللغوي، ليتحول موطئاً آهلاً للشاعر يتعايش مع ذئابه التي ألف الحياة معها، فينتفي مع هذا الوصف أن تكون عالماً غامضاً يبعث على الخوف والخوض في المجهول، لتأخذ حيّز الفضاء الجغرافي الاجتماعي.

لقد بات الفضاء الجغرافي يتعيّن في العمل الأدبي وفقاً للتجربة الذاتية، من هنا يكون خروجه من المستوى الواقعيّ إلى المستوى الفني قميناً بتكثيف الفاعلية الرمزية لحضور رموز ذلك الفضاء، "فأية دراسة للمكان لا تستوفي دراسة البعد الرمزي، وأشكال التبدّي المكاني في الشعر، والقيمة الجمالية فيه هي دراسة ناقصة"[١٩]

عليه؛ تغدو القفار " هي المكان الذي اختاره الشاعر بديلاً من المجتمع الأنسيّ حين فشلَ بإقامة علاقات طبيعيّة مع بني جنسه، فدخل في حالة اغتراب شديد خرج منها بالعبور إلى الصحراء"[٢٠]، فكانت القفار المكان البديل من مكان الانتماء الحقيقي.

يقول مالك بن الريب* مصوّراً تشرده في القفار الموحشة:[٢١]

أَدْلَجْتُ في مَهْمَهٍ ما إنْ أرى أحَدَاً حتّى إذا حانَ تَعريسٌ لمَنْ نَزَلا
وَضَعْتُ جَنْبي وقُلْتُ: اللهُ يكلؤني مهما تَنَمْ عنكَ من عينٍ فما غَفلا
والسيفُ بيني وبينَ الثوب مُشْعَرُهُ أخشى الحوادثَ إنّي لم أكُنْ وَكَلاَ
ما نِمْتُ إلاّ قليلاً نِمْتُهُ شئزاً حتّى وجدتُ على جُثماني الثِّقَلا
أما ترى الدّارَ قَفْراً لا أنيسَ بها إلاّ الوحوشَ وأمسى أهلُها احتَملا
بينَ المُنيفَةِ حيثُ استنَّ مَدْفَعُها وبينَ فردةَ مِنْ وَحْشِيّها قُبُلا

---

[١٧] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ١/٣٩٨.**
-تقدّر الثوب: بلي وتشقّقَ. الهنديّ: سيف صنع في الهند. الجفن: غمد السيف. ينباع: يتحرّك ماضياً
[١٨] **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مدكور، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣، مادة (قفرَ) ص٧٨٠-٧٧٩.**
[١٩] **الثنائيات الضدّية(دراسات في الشعر العربي القديم)، د.سمر الديّوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٨٠**
[٢٠] **المرجع السابق نفسه، ص٨٧.**
***مالك بن الريب (..._نحو ٥٦٠ه، ..._ نحو ٥٦٨٠ه): مالك بن الريب بن حوط بن قرط المازني، شاعر من الظرفاء الأدباء الفتّاك، اشتهر في أوائل العصر الأموي، ورويت عنه أخبار في أنه قطع الطريق مدّة ... كان من أجمل العرب جمالاً وأبينهم بياناً. (معجم الأعلام، الزركلي، ٥/٢٦١).**
[٢١] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، محمد نبيل طريفي، (٢/١٦٧- ١٦٨).**
-أدلجتُ: سرت ليلاً. المَهْمَه: الفلاة بعينها لا ماء بها ولا أنيس. التعريس: نزول القوم في السفر آخر الليل. وضعت جنبي: نمت بجنبي على الأرض. يكلؤني: يحفظني ويرعاني.
المشعر والشعار: ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب
النوم الشنز: القلق. الثقل: هو أفلح؛ العبد اللصّ الذي قتله
المنيفة: أرض ببلاد جرم، وقيل: ماء لتميم على فلج. استنَّ: وضحَ. مدفعها: مسيل مائها ومجراه. فردة: جبل في ديار طيّء. قُبلا: مقابلة وعياناً.

يقدم مالك بن الريب صورةً متكاملةً لطبيعة حياته التي اعتمدت التشرّد والتأبّد سبيلاً لها، فبرز الفضاء الجغرافي في المقطّعة بوصفه إحدى أدوات تلك الصورة، إن لم يكن أهمها، فالشاعر اعتاد العيش في القفار، حتى تكاد جزئيات ليلته في تلك القفار تعوّض عن جزيئات يومياته الطبيّعية لتأخذ مكانها، وبعيداً عمّا تكتنفه المقطعة من لوحات جزئية في رسم ذاك المشهد الليلي في أحضان القفار من تحديد دقيق لزمن التعريس ومكانه الموافقين للهزيع الأخير من الليل في مفازة نائية، وفضلاً عن صورة القلق التي يعيشها الشاعر انطلاقاً من ذكره السيف الملازم له، ونومه المتقطّع القلق، وقتله أحد الأشخاص في تلك الليلة، بعيداً عن كلّ ما سبق، يستطيع الدارس أن يتلمّس أهمية حضور الفضاء الجغرافي في شعر مالك بن الريب، ولا سيما من خلال ذكر أسماء بعينها (مهمه، المنيفة، مدفعها، فردة) ملحقاً إياها بلفظة (الدار) في قوله: أما ترى الدار، فتستحيل هذه الأمكنة المقفرة دار الشاعر ومكانه، وهذا ما ينمُّ على ثقل المكانية وحضورها المهمّ في العمل الأدبي، وعندما يفتقد النصّ الإبداعي هذه المكانية؛ فإنه يفقد خصوصيته، وبذا يفقد أصالته وجوهرهُ.[٢٢]

لقد آذن انفلات شعراء المقطّعات من العقد الاجتماعي بانفلات مماثل من الفضاء الجغرافي الأليف، ليمسي نظيره الوحشيّ المتمثّل بالبيد والفيافي، البديل الأنجع، ومركز الحماية واللجوء، على نحو ما جاء للخطيم العُكْليّ* في إحدى مقطعاته، إذ يقول:[٢٣]

بني ظالمٍ إن تظلموني فإنني إلى صالح الأقوامِ غيرُ بغيضِ
بني ظالمٍ إن تمنعوا فضلَ ما بِكمْ فإنَ بساطي في البلادِ عريضُ*
فإنّ المِعا لم يَسْلِبِ الدَّهْرُ عُزَّهُ بهِ العَلَجَانُ المُرُّ غيرُ أريضِ

لقد كان استشعار الظلم من القبيلة لدى الشاعر قميناً بتكثيف فاعلية الفضاء الجغرافي، فالفيافي والقفار تحضر في المقطعة السابقة من خلال قول الشاعر: (فإنّ بساطي في البلاد عريض)، وقوله أيضاً: (فإنّ المعا لم يسلب الدهر عزه)، وهذه البدائل المكانية باتت تمارس حركتها الوظيفية من خلال ما تكتنفه من معانٍ جديدةٍ بوصفها باتت تمثّلُ فضاءً جغرافياً حادثاً يسعى الشاعر إلى الانتساب إليه؛ ينتفي في هذا الفضاء الظلم، وتتحقق فيه أسس العدل والمساواة، فهذه القفار هي حلّ للشاعر عندما يقرّر "الهروب، أو حين يعمد إلى عالم غريب عن عالمه، ليسقط عليه رؤاه التي يخشى معالجتها، وهنا يتحوّل المكان إلى رمز وقناع يخفي المباشرة ويسمح لفكر المبدع أن يتسرّب من خلاله"[٢٤].

وعليه؛ بات ممكناً القول: إن حضور الفضاء الجغرافي في الأبيات السابقة سمح في رسم مشهد كلي لحياة شاعر المقطعات القائمة على التشرد والتأبّد، بدءاً من استشعاره الظلم من الأقربين في فضائة الجغرافي الواقعي، وصولاً إلى سعيه في إيجاد بدائل منه تمثلت بالفيافي والصحارى، وبناء علاقات جديدة مع مكوناتها وعناصرها.

يقول القتّال الكلابي:[٢٥]

---

[٢٢] يُنظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ص٥.

***الخطيم العكليّ: (...-نحو ١٠٠ه، ...- نحو ٧١٨ه) الخطيم بن نويرة العبشميّ المحرزي العكلي، شاعر أموي، من سكان البادية، ومن لصوصها، أدرك جريراً والفرزدق ولم يلقهما.. اشتهر باللصوصية واعتقل وسجن بنجران في اليمن زمناً طويلاً.(معجم الأعلام، ٢/٣٠٨)**

[٢٣] ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ١/٢٤٨

***في البيت إقواء**

المِعا: مكان، وقيل: جبل قبل الدهناء. العلجان: نبتٌ، وقيل: شجر أخضر.

تأرّضَ النبت: إذا أمكن أن يُجَزّ.

[٢٤] مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، عيون المقالات-الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٨م،ص٢٣.

[٢٥] ديوانه، ص٤٥.

-عِماية: جبل بنجد

جزى الله عنّا والجزاءُ بكفّهِ عِمايةَ خيراً أُمَّ كُلِّ طريدِ
فلا يزدهيها القومُ إن نزَلوا بها وإن أرسلَ السلطانُ كُلَّ بريْدِ
حَمَتْني منها كُلُّ عنقاءَ عيطلٍ وكلُّ صفا جَمِّ القِلاتِ كؤودِ

انطلاقاً من العلامات اللسانية التي تستبدُّ بالأبيات السابقة، وتنتسب، بدورها، إلى معجم الفضاء الجغرافي (جبل عماية، عيطل، كُلّ صفا، القلات)، يتضح أن الشاعر يعمد إلى تأسيسها بمبدأ الحماية لتكون بديلاً من مكانه الاجتماعي بفعل عامل الطرد من المجتمع الذي عاناه القتّال في حياته غير قليل، فالفضاء الجغرافي المتمثل بتلك القفار والأوبد يردُّ بالتقابل على صورة المكان الأليف(الاجتماعي) بدلالة لفظية (حمتني) والتركيب (أمّ كلّ طريد).

إذاً، تسهم هيمنة الفضاء الجغرافي في إنتاج دلالاتٍ كثيراً ما تفتح على رؤى جديدة يكشف عنها النّص الشعري، وهو ما يفضي، بالضرورة، إلى ولادة مجموعة من القيم التي تنبئ بمدى اتفاق الشاعر مع الثقافة الجمعيّة أو معارضته إياها، " فالمكان في العمل الفني شخصية متماسكة ومسافة مقاسه بالكلمات، ورواية لأمور غائرة في الذات الاجتماعية، ولذا لا يصبح غطاءً خارجياً أو شيئاً ثانوياً، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلّما كان متداخلاً مع العمل الفني"[٢٦]

لقد بات الفضاء الجغرافي الجديد لشاعر المقطعات، والمتمثل بالأوابد والقفار أكثر أماناً من نظيره الرئيس، وهذا ما يتفق مع فكرة الرؤى الحادثة التي تتكشف عن مقطعات أولئك الشعراء، فارتباط ذلك الشاعر بالثقافة الجمعيّة هو ارتباط شاحبٌ واهن، تؤكّده أشعارهم في كلّ مرة.

يقول الأحيمر السعديّ*:[٢٧]

لو تراني بذي المجازةِ فردا وذراعِ ابنةِ الفلاةِ وسادي
تِرْبَ بثٍّ أخا همومٍ كأنّ ال قفرَ والبؤسَ وافيا ميلادي
حظُّ عيني من الكرى خفقاتٌ بين سَرْحٍ ومُنحنى أعوادي
أَوْحَشَ الناسُ جانبيَّ فما آ نَسُ إلاّ بوحشتي وانفرادي.

يتبيّن بوضوح أنّ القرينة اللغوية (الفلاة) تتحدّد في المقطعة السابقة على أنها مكان حميم تلتئم عليه جراح الشاعر من تشرّد وبؤس وفقر، فَتَمْثُلُ بوصفها الملجأ الآمن الذي عوّضه عن مكانه الاجتماعي، فالتحاف السعديّ القفار بدلالة قوله: (وذراع ابنة الفلاة وسادي) ينبئ باغترابه عن واقعه الصريح، لتحلّ الصحراء بديلاً من ذاك الواقع، وحسبنا أن نقف على البيت الأخير في المقطعة السابقة حتى نتمكّن من معاينة صور هذا البديل (الفلاة)، ففي قول الشاعر: (أوحش الناس جانبي)، و (فما آنسُ إلا بوحشتي وانفرادي) دليلٌ واضحٌ على قدرة الأحيمر على إعادة علاقته بالمكان الطبيعي، والوحشة المنعقدة على الخوف والقلق تستحيل لديه أماناً وأنساً.

واستناداً إلى تلك الصور الحادثة في شعرهم لعلاقتهم بالفضاء الجغرافي الطبيعي، فإنّ هذه الصور تبيّن من زاوية أخرى مدى اغتراب هؤلاء الشعراء عن مكانهم الاجتماعي، فهي تعكس رهبة حياتهم وقسوتها وصراعهم في حياتهم التي عاشوها، والتي خاضوا أخطارها وذاقوا مرارتها وقسوتها.[٢٨]

يزدهيها: يستخفّون بشأنها
عنقاء: صفة للهضبة وهي الطويلة المرتفعة. العيطل: الهضبة الطويلة. الصفا: الصخر الأملس. القلات: ج قُلّت، وهي النقرة في الجبل.
[٢٦] الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م،ص١٧
***الأحيمر السعديّ (...-نحو ١٧٠ه،...-نحو ٧٨٧م)، شاعر من مخضرم في الدولتين الأموية والعباسية، كان لصاً فاتكاً مارداً من أهل بادية الشام، أتى العراق، وقطع الطريق فطلبه أمير البصرة ... ففرّ، فأهدر دمه، وتبرّأ منه قومه وطال زمن مطاردته فحنّ إلى وطنه...وتاب بعد ذلك عن اللصوصية.(الأعلام، ١/٢٧٧).**
[٢٧] ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ١/٥٦

خاتمة

ربما فرضت طبيعة حياة التأبّد التي كابدها شعراء المقطعات في العصر الأموي أن يكون شعرهم مساوقاً لكثير من وقائع تلك الحياة، ومغايراً، في كثير من بنياته، عن الشعر النمطي الرسمي.

عكسَ شعر المقطعات مشاهد التشرد والاغتراب التي عاناها شعراؤهم، فقدم دليلاً واضحاً عن طبيعة الحياة التي عاشوها، وصوّر هربهم المستمر، ومطاردتهم الدائمة، ورصدَ حالات الظلم التي استشعروها من قبل مكونات فضائهم الجغرافي الرئيس.

عمدَ شعراء المقطعات إلى إقامة علاقات جديدة مع الفضاء الجغرافي بصورة عامة، فغدت الصحارى والبيد مكاناً حميماً بدلاً من الفضاء الجغرافي الاجتماعي، وبذا استطاع هؤلاء الشعراء قلب العلاقة التي تربط الإنسان بمكانه الطبيعي، ونجحوا في خلق مجتمع بديل يحلُّ محلَّ فضائهم الجغرافي الرئيس.

استحالت مكونات الفضاء الجغرافي البديل عناصرَ تشعر شعراء المقطعات بالألفة والحميمية، فحيواناته ونباتاته باتت مصدر أمان لهم، في حين أمست عناصر الفضاء الجغرافي الاجتماعي مصدر خوف وقلق لهم.

فرّغ شعراء المقطعات في الأوابد والقفار مشاعرهم ورؤاهم، فكان هذا التفريغ بمنزلة وثيقة إثبات، وردّ طبيعي على حالة الاغتراب التي عانوها في فضائهم الجغرافي الأم.

عمل شعراء المقطعات في العصر الأموي على تفكيك أدوات الفضاء الجغرافي الواقعي وإعادة بنائها وهيكلتها من جديد بصورة تتناسب وحيواتهم الخاصة؛ الأمر الذي جعل لغتهم المشكّلة لغةً ينسجها خيالهم، فكانت أقرب إلى الواقعية منه إلى الفنية، فشاعر المقطعات لا يلتفت إلى الشعائر الفنية التي أقرها النهج الرسمي في الشعر، وهو لا يطلب في شعره أن يبلغ ذروة فنية تؤهله لنيل ثناء أو إطراء، مما أسهم بدوره في رسم فضاء جغرافي خاص بهم وبتجربتهم الحادثة، بعيداً عن الانشغال بالفن ومحدّداته.

المصادر والمراجع

١- إعجاز القرآن، تحقيق: أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر، ١٩٩٤م

٢- بنية الشكل الروائي(الفضاء-الزمن-الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٣- الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم)، د. سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩م.

٤- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٠م.

٥- جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، أسماء شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

المجازة وذو مجازة: منزل من منازل طريق بين ماويّة وينسوعة على طريق البصرة
الترب: المماثل في السنّ، وأكثر ما يكون استعماله في النساء. البثّ: الحزن والهمّ.
وافى: أدرك وفاجأ.
السّرح: اسم موضع
[٢٨] يُنظر: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٢٠٣.

٦- جماليات المكان في شعر السياب، ياسين النصير، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٧- جمهرة اللغة، ابن دريد، دار صادر، طبعة الأوفست.
٨- ديوان القتال الكلابي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م
٩- ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م
١٠- الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م
١١- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م
١٢- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٩٦م
١٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٩٣٤م
١٤- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م
١٥- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٣م
١٦- مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، عيون المقالات، الدار البيضاء، الطبعة الثانية. ١٩٨٨م
١٧- معجم الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة عشرة، ٢٠٠٧م
١٨- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ.
١٩- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مدكور، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.
٢٠- المكان في الرواية العربية، الصورة والدلالة، عبد الصمد الزايد، كلية الآداب، دون طبعة، دون تاريخ.

Sources and references

1_ The Miracle of the Qur'an, edited by Abu Bakr Abdel Razzaq, Egypt Library, 1994 AD.
2_ The structure of the novelistic form (space_time_character), Hussein Bahrawi, Arab Cultural Center, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1990 AD.
3_ Opposite binaries (Studies in Ancient Arabic Poetry), Dr. Samar Al-Dayoub, Publications of the Syrian General Book Authority, Damascus, 2009 AD.
4_ Aesthetics of Place, Gaston Bachelard, translated by Ghaleb Hilsa, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, 5th edition, 2000 AD.
5_Aesthetics of place in the novels of Jabra Ibrahim Jabra, Asmaa Shaheen, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1st edition, 2001 AD.
6_The Aesthetics of Place in Al-Sayyab's Poetry, Yassin Al-Nasir, Dar Al-Mada for Culture and Publishing, Damascus, 1st edition, 1995 AD.
7_ Jamharat al-Lughah, Ibn Duraid, Dar Sader, offset edition.
8_The Diwan of the Dog Fight, edited by Dr. Ihsan Abbas, House of Culture, Beirut, 1989 AD.
9_Diwan of Thieves in the Pre-Islamic and Islamic Ages, Muhammad Nabil Tarifi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1st edition, 2004 AD.
10_The novel and the meanings, Yassin al-Nusair, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1st edition, 1986 AD.

11_The Poetry of Tramps: Its Method and Characteristics, Abdel Halim Hefny, Egyptian General Book Authority, 1987 AD.
12_Poetry and Poets, Ibn Qutaibah, edited by Ahmed Muhammad Shaker, Dar Al-Maaref, Egypt, 1996 AD.
13_ Al-Umdah in The Virtues of Poetry, Its Literature, and Its Criticism, Ibn Rashiq Al-Qayrawani, edited by Muhammad Muhyiddin Abdul Hamid, 1934 AD.
14_ Lisan al-Arab, Ibn Manzur, Dar Sader, Beirut, 2nd edition, 1992 AD.
15_ Ocean of the Ocean, Boutros Al-Bustani, Lebanon Library, Beirut, 1983 AD.
16_ The Problem of the Artistic Place, by Uri Lotman, translated by Siza Kassim, Oyoun al-Maqalat, Casablanca, 2nd edition, 1988 AD.
17_ Dictionary of the Proper, Al-Zirakli, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, 17th edition, 2007 AD.
18_ Dictionary of Language Standards, Ibn Fares, edited by Abd al-Salam Haroun, Dar Ihya al-Lughah al-Arabiya, Cairo, 1st edition, 1369 AH.
19_ The Intermediate Dictionary, Arabic Language Academy, Ibrahim Madkour, Cairo, 3rd edition, 1993 AD.
20_ Place in the Arabic Novel, Image and Connotation, Abdel Samad Al-Zayed, College of Arts, out of print, undated.